

# الدولة القومية

د. محمد عبد العزيز ربيع

في عهود الزراعة كانت البيئة الاجتماعية الثقافية المؤسسة على تقاليد ثابتة وعادات موروثية وعقيدة دينية هي العامل الأكثر أهمية في حياة الإنسان والأكثر تحكماً في قيمه ونظراته الحياتية. وهذا جعل حدوث تغير جذري في معطيات الحياة وتحول اجتماعي حقيقي في حياة ذلك المجتمع بحاجة لكسر هيمنة الثقافة الدينية وإضعاف دور العادة والتقليد المتمركز في أعماق المجتمع وبيئته الاجتماعية. وهذا ما فعلته الثورة الفكرية والنشاطات التجارية التي وقعت إبان عصر النهضة في أوروبا وشملت العلوم والفلسفة والدين التكنولوجيا وأثارت صراعاً حاداً في المجتمع كان من نتائجه حروب الإصلاح الديني وقيام الدولة القومية. ولقد ترتب على ذلك تحرير الفكر وتحرير الاقتصاد وإطلاق العنان لقدرات الإنسان الخلاقة لتعمل وتبدع وصولاً إلى قيام الثورة الصناعية، وتبلور البيئة التكنولوجية واكتمال مقومات ومؤسّسات الدولة القومية الحديثة. ولقد كانت تلك الدولة التنظيم المجتمعي الجديد الذي وفر لأبناء المجتمع الواحد، أو الشعب الواحد، أرضاً، أو مساحة جغرافية معروفة، وإطاراً سياسياً- ثقافياً للتعاون والتفاهم والتميز عن الغير، ومكّهم بالتالي من الحصول على قدر كبير من الأمن والاستقرار وحرية العمل والإحساس بالانتماء. ولقد نتج عن ذلك تعزيز دور ومكانة العملية السياسية في الحياة الاجتماعية، وتبلور الفكرة القومية كأيدولوجية اجتماعية- سياسية ساهمت في ربط أبناء الشعب الواحد والبلد الواحد بروابط معنوية وثقافية قوية.

جاءت الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر نتيجة لحدوث اكتشافات علمية وتكنولوجية كثيرة وهامة، وتوسع النشاطات التجارية والمعاملات المالية بين الدول، وإعادة تنظيم العملية الإنتاجية على أسس جديدة اختلفت اختلافاً نوعياً كبيراً عن نظم الإنتاج الزراعية. ولقد كان لهذا التطور الفضل الأكبر في تقدم الجانب الاقتصادي للحياة الإنسانية وبلورته كعملية مجتمعية استطاعت، بعد نزوح عصر الصناعة، أن تصبح العملية المجتمعية الأكثر أهمية وتأثيراً في حياة المجتمع ككل.

في بداية عصر المعرفة ظهرت العملية الإعلامية كعملية مجتمعية هامة ذات علاقة بغيرها من عمليات مجتمعية أخرى، وهي علاقة تقوم على التعاون والتنافس والتأثير المتبادل. ويمتاز عصر المعرفة الذي لم تتضح معالمه كاملة بعد بكون نشاطات جمع المعلومات وتحليلها وتخزينها ونشرها وتوصيف عمليات الاستفادة منها قد أصبحت أهم صناعاته على الإطلاق وأكثرها ربحية ومكانة اجتماعية. وهذا من شأنه أن يجعل العملية الإعلامية- المعلوماتية التي تتعامل بالمعلومات وتستخدم تكنولوجيا الاتصالات

العملية المجتمعية الأكثر أهمية وتأثيراً في حياة المجتمعات المعرفية، وبالتالي في مسيرة العملية التاريخية. ومما يؤكد أهمية هذه العملية نجاحها، كما أوضحنا سابقاً، في الاستيلاء على بعض مهام كل من العملية السياسية والعملية الاجتماعية- الثقافية واتجاهها إلى إقامة تحالف قوي مع العملية الاقتصادية.

بعد تبلور معالم عصر المعرفة واتجاهه نحو النضوج، والذي سيحدث على الأغلب في نهاية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، سيكون ذلك العصر قد بلور منظومة جديدة من القيم، ونظماً اجتماعية جديدة وعلاقات عمل وإنتاج وأنماطاً إنتاجية مختلفة نوعياً عن مثيلاتها التي سادت في عصر الصناعة وقامت بإدارة شؤون الحياة الصناعية. وهذا من شأنه إنهاء منطوق وحكمة تاريخ عصر الصناعة وإضعاف قدرته على التأثير في حياة عصر المعرفة والتنبؤ بتطورات المستقبلية. وحيث أن الدولة القومية كانت ولا تزال أهم دعائم الحياة الصناعية ومن القوى الرئيسية التي شاركت في صنع تاريخها، فإن تبلور عصر المعرفة سيؤدي بالتأكيد إلى إضعاف دور وشرعية الدولة القومية وتقليل أهميتها كإطار انتماء سياسي- اجتماعي في المجتمع الواحد، وأداة عمل سياسي- آمني واقتصادي على الساحة الدولية.

إن الاعتراف بالدولة القومية وتعريف حقوقها وامتيازاتها تم الاتفاق عليه رسمياً في صلح وستفاليا الذي أنهى ثلاثين سنة من الحروب المتواصلة في أوروبا. ولقد أرسى نصوص تلك الاتفاقية والتي وقعت في عام 1648م في مدينة وستفاليا الألمانية، مبادئ ما أطلق عليه فيما بعد "النظام العالمي الجديد". أما تلك المبادئ فقد نصت أساساً على:

1. الاعتراف بحدود سياسية لكل دولة واحترام تلك الحدود.
2. الالتزام بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، أي الالتزام بعدم الاعتداء عليها.
3. فصل الدين عن السياسة وإعطاء كل حاكم أو ملك حق تحديد الديانة الرسمية لدولته وشعبه.

بدأت حرب الثلاثين سنة الأوروبية في ولاية بوهيميا في عام 1618، وذلك نتيجة لخلاف ديني أدى إلى خلع ملكها وتعيين ملك آخر. وتقع ولاية بوهيميا اليوم ضمن أراضي الجمهورية التشيكية رغم أنها خضعت لفترات مختلفة من الزمن لسيادة ألمانية وكان الألمان، وحتى هزيمة هتلر في الحرب العالمية الثانية، يشكلون غالبية سكانها. كانت عملية تغيير الحاكم سبباً في قيام الملك المخلوع بإعداد الجيوش وخلق التحالفات السياسية والدينية مع ملوك دول أوروبية أخرى لبدء حرب طاحنة شملت غالبية الدول الأوروبية الحديثة التي نعرفها اليوم. ولقد كانت الحرب، والتي دارت أبشع معاركها على أراضي ألمانية، من أكثر الحروب قسوة ودماراً في تاريخ الإنسانية.

قال الفيلسوف توماس هوبس Thomas Hobbes إن تلك الحرب وما تخللها من عنف كانت النتيجة الطبيعية لقيام بعض الدول الأوروبية بمحاولة السيطرة على غيرها من دول أوروبية أخرى، وخوف البعض الآخر من التعرض للغزو الخارجي من قبل دول مجاورة. وفي الواقع كانت كل دول أوروبا في النصف الأول من القرن السابع عشر إما غازية، أو معرضة للغزو، أو غازية ومعرضة للغزو في آن واحد. وهذا يفسر أهمية الاستقرار السياسي وعلاقات الجوار المؤسسة على الطمأنينة والتعاون، ويكشف مخاطر وعواقب التعامل مع الغير من مواقع الشك أو الاستعلاء أو الرغبة في السيطرة.

كان القرن السابع عشر في أوروبا هو قرن الثورة العلمية وتوسع النشاطات التجارية، خاصة في آسيا وأفريقيا وقارتي أمريكا. إلا أن النخبة الأوروبية، بما في ذلك النخبة السياسية، خاصة الملوك والحكام والمثقفين ورجال الدين، لم يعيروا الاكتشافات العلمية والتطورات التكنولوجية والفرص التجارية الجديدة ما كانت تستحقه من أهمية، حيث انشغلوا في عمليات جدل فكرية ودينية وحروب سياسية استهدفت أساساً التوسع على حساب الغير والانتصار للأقارب من ملوك وحكام، وتدعيم مراكزهم وامتيازاتهم الاجتماعية على المدى القصير.

بعد صلح وستفاليا أخذت الأمور تستقر تدريجياً، حيث خفت حدة الصراع بين الدول وتراجعت أهمية الخلافات الدينية، خاصة بعد قيام الحكام انطلاقاً من مبادئ ذلك الصلح بإجبار غالبية مواطني دولهم على اعتناق الدين الرسمي المعلن للدولة أو الهجرة إلى الخارج. ولقد كان من نتائج ذلك الصلح أيضاً تبلور توازن جديد للقوى جعل الصراع، خاصة في ضوء تطور الأسلحة والجيوش، صعباً وغير مضمون النتائج.

وهكذا تبلورت المعالم السياسية للدولة القومية وتم تعريف حقوقها وامتيازاتها والتزاماتها، بينما كانت تتم في الداخل عملية فصل الدين عن السياسة. وهذا أدى بدوره إلى تزايد دور السياسة على حساب الدين، وتبلور ثقافة وطنية على أسس لغوية وتقاليد محلية وعقيدة دينية واحدة.

في عهود ما قبل الزراعة لم يكن هناك ما يُسمى اليوم "حق تقرير المصير" وذلك لتساوي القبائل في الحقوق داخل إطار المجتمع القبلي الذي خضع لظروف بيئة طبيعية قاسية لم يكن بالإمكان السيطرة عليها. في عهود الزراعة استمر غياب مفهوم حق تقرير المصير كإطار عمل سياسي ورؤية فلسفية إلى حد كبير، بسبب سيطرة الثقافة الدينية على المجتمع واتجاهها عموماً إلى القول بأن المصير يتحقق في العالم الآخر بعد الحياة. في عهود الصناعة تبلور مفهوم حق تقرير المصير كموقف سياسي وإطار عمل اجتماعي ساهمت الفكرة القومية والثقافة الوطنية في تشكيله وتحديد معالمه وقامت الدولة القومية بتجسيده على

أرض الواقع. في عصر المعرفة، وبسبب تراجع أهمية ودور كل من الدولة القومية والثقافة الوطنية، فإن من المتوقع أن يصبح حق تقرير المصير فردياً، وليس جماعياً أو مجتمعياً، ما يتيح للإنسان- الفرد مزيداً من الحرية ويساعده على التملص من المسؤولية الاجتماعية. وهذا من شأنه الإسراع في تقويض دعائم الدولة القومية، وإضعاف الثقافة الوطنية، وجعل مفهوم المجتمع القومي الواحد مفهوماً ضبابياً يعكس وجود تجمعات إنسانية بلا روابط مصلحة أو ثقافية حقيقية، وبلا مخاوف أمنية أو مصيرية مشتركة.

إن انتهاء تاريخ القبيلة عند محطة الزراعة لم يتسبب في توقف العملية التاريخية ونهاية التاريخ ككل، وذلك لأن الإنسان والمجتمع الجديد الذي عاش عصر الزراعة استمر في البحث عن وسائل جديدة لزيادة قدرته على السيطرة على الجزء الأكبر من عناصر بيئته الطبيعية وتطوير بيئته الاجتماعية وتحسين نوعية حياته. وهذا تسبب في استمرار المسيرة التاريخية، ولكن تبعاً لمنطق جديد وتحت تأثير قوى جديدة لم تكن معروفة أو بذات الفاعلية والوضوح من قبل.

كذلك، لم يكن انتهاء تاريخ حضارة الزراعة عند محطة الصناعة سبباً لشعور الإنسان والمجتمع الصناعي بالرضا التام عن الواقع الجديد وتوقف المسيرة التاريخية وإعلان نهاية التاريخ. لقد استمر الإنسان في البحث عن وسائل تكنولوجية وترتيبات اجتماعية ومجتمعية جديدة تحرره من ضغوط وسلبيات البيئة المحيطة بحياته، خاصة ما تعلق منها بالدور الاستغلالي لرأس المال والدور التسلطي للآلة والمصنع والدور المهيمن للسلطة السياسية. وهذا ما سيحدث بالتأكيد بعد نضوج عصر المعرفة وانتهاء تاريخ حضارة الصناعة، حيث من المتوقع أن يستمر الإنسان والمجتمع المعرفي في البحث عن وسائل تكنولوجية وترتيبات مجتمعية ونشاطات ثقافية- ترفيهية جديدة لتحسين نوعية الحياة بوجه عام.

وفي الواقع من المؤكد أن تفوق الظروف الجديدة التي بدأت تتبلور تدريجياً مع بدايات عصر المعرفة، والتي أخذت تسمح بتعايش أكثر من حضارة واحدة جنباً إلى جنب في دولة واحدة إلى شعور غالبية الناس بالقلق والخوف والتعرض لخطر الجريمة حتى مع ارتفاع مستويات الدخل والمعيشة ما سيحفز الهمم والعقول للبحث عن ترتيبات اجتماعية وإنتاجية أفضل تحقق قدراً أكبر من المساواة والعدالة. وهذا يعني باختصار أن العملية التاريخية مستمرة، وإن توقفها عند محطة ما لا يعني أكثر من انتهاء قصة عهد من عهودها، والاسترخاء قليلاً لالتقاط الأنفاس والاستعداد لبدء قصة عهد جديد على طول مسيرة لا تنتهي أبداً.

يبدو من الواضح أن نظريتنا في التاريخ تشير إلى تقدم المسيرة التاريخية نحو الأمام في حركة غير منتظمة، تتسارع أحياناً وتتباطأ أحياناً أخرى لدرجة تقارب التوقف، وأن خط سيرها العام تصاعدي يمر

أثناء صعوده في منحنيات ومنعطفات كثيرة، ما يجعل العملية التاريخية تبدو مجزأة، ويجعل التواصل بين أجزائها صعباً. وتقوم الحضارة الأكثر تقدماً، وأنماط الحياة الأكثر رقياً، بقيادة المسيرة وجرها إلى الأمام في حركة تصاعديّة تجعل الأجزاء الخلفية، أي الحضارات الأقل تقدماً، وأنماط الحياة الأقل رقياً، غير قادرة على التحرك إلى الأمام ذاتياً، ومعرضة دوماً للسقوط عندما ينفك رباطها بما يتقدمها من حضارات وأنماط حياتية مختلفة. أما هدف المسيرة التاريخية فهو تحقيق المزيد من الحرية للإنسان والرخاء الاقتصادي والتمتع بالحياة، وذلك من خلال تعزيز قدرة الإنسان ممثلاً بنظمه ومؤسساته على السيطرة على بيئته الطبيعية، وتحريره من تسلط الفلسفات الشمولية وتقويض قدسية القيم والتقاليد الموروثة، وإضعاف قبضة وشهوة العملية السياسية، وتسليحه بالعلم والوعي والخبرة للانتصار على الآلة وتسخيرها لخدمة أهدافه وحماية مصالحه.

لذلك، يمكن أن تُطلق على نظريتنا هذه اسم "نظرية القاطرة" The Locomotive Theory وهي عبارة عن آلية اجتماعية تتحرك ذاتياً وتجبر من خلفها مجموعة من العربات المرتبطة بها ومع بعضها البعض بسلاسل كثيرة الالتواء، وهي سلاسل تبدو قوية عندما تقترب منها ومزعجة عندما تتحرك لثقلها وبطء حركتها، وتبدو واهية وضعيفة من الصعب رؤيتها عندما تبتعد عنها. أما حمولة تلك العربات المتتابعة فهي شعوب وثقافات وإنجازات مادية وغير مادية وتطلعات إنسانية متباينة ومتضاربة، تمثل كل عربة منها حضارة معينة بشعوبها وثقافتها وإنجازاتها ومظاهرها. وبسبب ارتباط كل عربة بما يتقدمها وما يتبعها من عربات بسلاسل، فإن الحركة داخل كل عربة، تبدو ذاتية دائرية إلى حد كبير.

يشكل سكان القاطرة، على قلتهم، قادة المسيرة التاريخية والقوى الرئيسية المحركة للتاريخ، فيما يشكل سكان العربة الأقرب إلى القاطرة الشعوب والفئات الاجتماعية الأكثر تأثراً بالقيادة والأقدر على فهم طبيعة ومغزى حركتها، أي الأقدر على التفاعل والتواصل معها. أما سكان العربة الأكثر بعداً عن القاطرة فيشكلون الشعوب والفئات الاجتماعية الأكثر عزلة وانعزالاً عن العصر الذي تتحرك فيه القاطرة، والأقل قدرة على التأثر بالقيادة وفهم طبيعة ومغزى حركتها والتفاعل والتواصل معها. وهذا يجعل كل عربة تسير في الخط ذاته صعوداً نحو الأمام، مقتفية أثر العربة التي تسبقها، ترتبط بها وتعتمد عليها وغير قادرة على تجاوزها، ما يجعل كل عربة أو حضارة أكثر تأثراً بالحضارة المتقدمة عليها وأكثر تأثيراً في الحضارة التابعة لها مباشرة، ويجعل قيادة المسيرة الحضارية تؤثر في كل ما يتبعها من حضارات بشكل كبير ومباشر أو بشكل صغير غير مباشر.

وإذا كانت المسيرة التاريخية بدءاً بحياة الترحال والتجول وانتهاءً بعصر المعرفة تشير بوضوح بالغ إلى تحرك الإنسانية نحو الأمام، إلا أن فترات النضوج والاستقرار الحضاري، خاصة فترات ما قبل نضوج حضارة الصناعة، تشير أن المنحنى التاريخي سار بشكل دائري إلى حد كبير. أما خلال الفترات الانتقالية الصعبة، خاصة تلك التي عبرتها المجتمعات الإنسانية من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة ومن عصر الصناعة إلى عصر المعرفة، فتشير إلى أن المنحنى التاريخي سار بشكل عشوائي فوضوي إلى حد كبير. وهذا يعني باختصار أن النظرية الدائرية هي الأقدر على تفسير تاريخ المجتمعات الإنسانية، شعوباً وثقافات ودول خلال مراحل الاستقرار والنضوج الحضاري، وأن النظرية الفوضوية هي الأقدر على وصف وتفسير ذلك التاريخ أثناء المراحل الانتقالية من حضارة لأخرى، وأن النظرية المستقيمة هي الأقدر على تفسير مسيرة الحضارة الإنسانية الشاملة، وهذا بالتالي يجعل تلك النظريات الثلاثة أجزاءً متكاملةً لنظرية عامة واحدة في قراءة وتفسير التاريخ، ألا وهي نظرية القاطرة، The Locomotive Theory of History.

إن أهم الأسباب التي تجعل الفترات الانتقالية تبدو وكأنها حالة من الصراع والارتباك والضياع الكامل هي نفس الأسباب التي تجعل تلك الفترات نقاط انطلاق أساسية نحو عالم أفضل وأكثر حرية وعطاء. ومن خلال عملية مجتمعية يسيطر عليها الصراع ويقودها التغيير يتم أولاً التشكيك في صلاحية ما هو قائم من نظم وقيم وفلسفات وأنماط إنتاج وعلاقات إنتاج، ويتم ثانياً تغيير أو تعديل المشكوك في صحته وصلاحيته من تلك النظم والقيم والعلاقات، وبالتالي ميلاد مجتمع جديد بثقافة جديدة يعيش عصرًا حضاريًا جديدًا. إنها فترات صراع بين القديم والجديد يتم من خلاله وبه تقويض أعمدة الفكر والمجتمع القديم وإقامة أعمدة جديدة تختلف كما ونوعاً وأساساً عن الأعمدة القديمة. وهذا يجعلها أيضاً فترات انقطاع تاريخي تحول دون استمرار الماضي وتقويض منطقته التاريخي، وتمهد الطريق لبزوغ فجر جديد وتاريخ جديد بمنطق مميز.

د. محمد عبد العزيز ربيع

[www.yazour.com](http://www.yazour.com)